عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الأولى: مقدمات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الرابع : إشارية الخطاب الصوفي
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

إشارية الخطاب الصوفي

تميز الخطاب الصوفي باختياره للإيحاء والرمزية بديلا عن التعبير المباشر، وهو ما اصطلح عليه عند أهل التصوف ودارسيه بنهج الإشارة بدل العبارة، مما يجعل الباحث الفاحص للفكر الصوفي الإسلامي أمام نظام معرفي له خصائص تبليغية وتربوية ووجودية وجمالية.

اعتنت الدلالات اللغوية بنقل المعاني الفكرية للمذاهب الإسلامية، وتبليغ مقاصدها، والتعبير عن أغراضها، ولم تنفصل اللغة أبدا عن الرؤية الشاملة التي تصدر عنها، فاللسان يظهر ما يستتر في الجنان.

وقد أفاضت الدراسات في بيان الوظائف الإبداعية والجمالية، وكذا الأبعاد الفلسفية للخطاب الإشاري الصوفي غير أننا نريد في هذه المقدمات المنهجية لمدخل دراسة التصوف التركيز على بيان الوظيفة التربوية لإشارية الخطاب الصوفي في إطار استكمال التصور للبعد السلوكي والعملي للتصوف الإسلامي.

وجد الصوفي في الإشارة طريقا لإيصال رسائله التخليقية للمتلقي، ولم يخرج في ذلك عن المعهود في التخاطب العربي الطبيعي، وقوانين التأسي والاقتداء الذي يكون فيه الفعل أبلغ من القول. فالأخلاق قيم ومعان مشخصة متصلة بأهلها المتحققين بها، والساهرين على تبليغها وفق قواعد تنزيل تراعي اختلاف مقتضيات أوقات وأحوال الطالبين لها، ولا تخرج الإشارات أو الدلالات غير المباشرة عن هذا النسق العام الذي يتمم فيه الفعل المعاني المتعددة التي يتأولها المتلقي وفق منزلته الروحية والأخلاقية مما لا يمكن للعبارة المباشرة أن تفي به في مثل هذه المضامير الاقتدائية والتخليقية.

جعل التصوف من الإشارة باعتباره تجربة روحية عملية، وممارسة وجدانية أخلاقية علامات هادية في طريق السير إلى المكارم والكمالات والتي لا تعرف التكرار المقلد بل الاكتشاف المتجدد المرتبط بالحي الدائم الممد سبحانه وتعالى. فالمحققون من أهل التربية الصوفية يشيرون وعلى المريد عبور طريق السلوك بهمة الطالب الصادق، الحريص على التمسك بالكتاب والسنة، حتى فالمعاني الروحية فوق طور العبارة والإشارة، والأخيرة أقرب في الدلالة عليها كالسهم المؤشر، وليست هي عين حقيقتها. لأن «كل إشارة تلوح في الفهم لا تسعها العبارة، فاعلم ان أهل الله قد جعلوا الإشارة نداء على رأس البعد وبوحا بعين العلة، ولكن في التقسيم في الإشارات يظهر فرقان: وذلك أن الإشارة التي هي نداء على رأس البعد فهو حمل مالا تبلغه العبارة. كما أن الإشارة للذي لا يبلغه الصوت لبعد المسافة وهو ذو بصر، فيشار إليه بما يراد منه فيفهم. فهذا معنى قولهم نداء على رأس البعد.فكل مالا تسعه عبارة من المعلوم فهو بمنزلة من لم يبلغه الصوت، فهو بعيد عن المشير وليس ببعيد عما يراد منه، فإن الإشارة قد أفهمته ما يفهمه الكلام أو يبلغه الصوت. وقد علمت قطعا أن المشير إذا كان الحق، فإنه بعيد عن الحد الذي يتميز به العبد، فهذا بعد حقيقي لا بد منه، ولا يكون الأمر إلا هكذا. فلا بد من الإشارة وهي اللطيفة: فإنه معنى لطيف لا يشعر به.

ثم إنه –وإن لم يكن البعد– فهو بوح بعين العلة، وذلك أن الأصم يكون قريبا من المتكلم، ولكن قربه لا تقع به الفائدة لأنه لا يصل إليه الصوت لعلة الصمم، فيشير إليه مع القرب...»[1].

إن التصوف قائم على الأعمال والاجتهاد فيها ويتسم بالحركة الدائمة التي تجد معاني روحية نابضة، تسعف الإشارة في الدلالة عليها واستنهاض الهمم لطلبها، نجد مثال ذلك في حكم ابن عطاء الله السكندري الذي قدم أنظارا أخلاقية عالية في قمة الإبداعية والجمالية والتوجيهية والسلوكية والإشارية فقام بشرحها كثير من محققي الصوفية تميزت بالفرادة والتميز بل تجد محتسب الصوفية الشيخ زروق قد شرحها لوحده مرات كثيرة عبر عنها، بأنه يجد في كل شرح تنزلات فهمية جديدة، وليس ذلك راجع إلا لسر اختيار الإشارية مسلكا لتبليغ المضامين الأخلاقية والتي لا فصل فيها بين الأقوال والأعمال. ولا أدل على هذا المنحى التربوي من قراءة الصوفية لعلم النحو وقواعده وهو العلم الدال على الرسم والظاهر، والقائم والمقوم للسان، وتقديمه وفق الرؤية الإشارية التي تروم التخليق، و قد ترك القوم مصنفات تمثل نبوغا إبداعيا فريدا، فالإمام عبد الكريم القشيري « ينقل الاصطلاح النحوي بما له من خصائص إلى علم التصوف، ويطابق مطابقة دقيقة بين ما يحدث في النحو من إعراب، أو بناء، من

1. ابن عربي، الفتوحات المكية، ج2، ص، 504، دار صادر، بيروت.

ضم وفتح وجر وجزم، من تنكير وتعريف، من ذكر وحذف، من تقديم وتأخير، ونحو ذلك، يطابق بين هذا كله وبين ما يحدث للصوفي، بمعنى أن حركات اللسان تتطابق مع حركات القلب، وأن ما يصيب اللفظة من تغييرات، يحدث نظيره للعبد، وليس من فرق بينهما، إلا أن العمليات والتغيرات التي تجري في النحو ظاهرية شكلية، وأن ما يجري في التصوف نظيرا لها يجري على نسق باطني روحاني...»[2].

فالقصد التربوي حاضر في العملية التبليغية والإشارية للقيم الأخلاقية «فإن النحو عبارة عن القصد، والناس مختلفون في المقاصد، ومفترقون في المصادر والموارد، فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، وواحد تقويم جنانه أكثر همه، فالأول صاحب عبارة، والثاني صاحب إشارة»[3].

إن التصوف تجربة وجودية ووجدانية، فهو يسهر على التحقق بالكمالات الخلقية ومن ثم فإن اللغة العبارية لا تسعفه، ومجرد النظر لا يسعه، ولا يمكن تبليغ مضامينه التخليقية إلا من خلال طريق المشاركة والعلم بهذه المشاركة، ولما كانت الإشارة معنى وجوديا وجدانيا، فإنها لا تنفك عن التشخص المفتقد في الأسلوب العباري، فالإشارة تعبير عن المعنى باعتبار حقيقته الدالة على العمل والإنجاز، والاتباع والسلوك.

2. إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، سيرته،آثاره،مذهبه، ص77-76.
3. القشيري، نحو القلوب الصغير،م، مجمع اللغة العربية،ج3،ص 173.